الإسلام والميثاق الاجتماعي

فيليب موليني

أوت 2015

FONDATION POUR L'INNOVATION POLITIQUE
fondapol.org

FONDATION POUR
L'INNOVATION
POLITIQUE
fondapol.org

www.fondapol.org

فيليب موليني

الإسلام
والميثاق الاجتماعي

ترجمة

عبد الحق الزموري

أوت 2015

مؤسسة التجديد السياسي (*Fondapol*)
هي مركز بحث وتفكير (ثنك تانك)
ليبرالي تقدمي أوروبي

نيكولا بازير: رئيسا
غريغوري شرتوك: نائب رئيس
دومينيك راينبي: مديرا عاما
لورونس باريزو: رئيسة المجلس العلمي والتقييم

تنشر المؤسسة هذا الكتيب في سياق اهتمامها بالقيم

المستشار العلمي لسلسلة قيم الإسلام هو عالم الإسلاميات في جامعة ستراز بورغ إيريك جوفروا

العنوان بيد الخطاط راني روابح

الإسلام والميثاق الاجتماعي

فيليب موليني

قاضي ودكتور في العلوم السياسية

استهلال

للذهاب مباشرة إلى جوهر الدين، لا بد أن تكون مُدركا للمسة البداية التي أنشأته. كل شيء يتعلق "بالبدء". فالأديان تتحدث عن نفس الإله، ولكن كل واحد منها يقوم بذلك بطريقته، للتأقلم مع متطلبات الاختلافات بين الشعوب. لا وجود لتماثل بينها، فلكل واحد لونه الخاص. النور الإلهي واحد، ولكن الألوان التي تُظهره متنوعة. ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.[1]

عندما قرر الله أن يظهر لإبراهيم، بدأ بتوجيه نظره إلى حقائق العالم الحسي. كشف له عن ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.[2] وقد رأى إبراهيم أشياء زادها النور كثافة: النجم، القمر،

---

[1]) سورة النحل؛ آية 13

[2]) سورة الأنعام؛ آية 75

الشمس. وكانت تلك الكواكب، وقد جُعلتْ آيات حسية، تختفي في كل مرة. كان إبراهيم يشعر في كل مرة بخيبة الأمل: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾.[3] وأخيرا يعود إلى عالمه العقلي، فيجد حضورًا ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.[4] عندها بدأ يتحدث عن الإدراك الذي يتوجه إلى الخارج، على شاكلة ﴿الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.[5]

أما الوحي الذي نزل على النبي محمد (ص) فهو من نوع آخر. فقد أتاه وهو في مغارة، أي خارج العالم، في وضع يمكننا وصفه بأنه مفارق للقوانين الكونية. فعندما ضمّه المَلَك جبريل، أعطاه أمرا واحدا: ﴿إقرأْ﴾.[6] وهو لم يشدّ انتباهه إلى الآيات الكونية بل إلى الآيات المكتوبة. قام الإسلام بتحقيق نوع من القفزة الكمّية. فقد انتقل بالإنسان من وضعية الإدراك إلى فعل القراءة. وما يميّز الإنسان، في حالة الحميمية المطلقة بينه وبين نفسه، أن يكون قارئا. نحن نعتقد إن عقلنا يشتغل على مثال أرضي، يتعامل فيه

---

[3]) سورة الأنعام؛ آية 76

[4]) سورة الأنعام؛ آية 79

[5]) سورة الأنعام؛ آية 77

[6]) سورة العلق؛ آية 1

مع كائنات وأشياء وأحداث موجودة أصلا فيه، وذلك من خلال نسخة عن أشياء الإدراك الحسي. ذاك هو "صراط الضالّين" الذي تحدثت عنه السورة الأولى من سور القرآن. أما "الصراط المستقيم"[7] فهو الصراط الذي يحيلنا على أنفسنا، محققين — الآن – لفعل القراءة. لم يُخلَق عالمنا الباطني للبدء مع حقائق موضوعية، بل مع آيات ومعنى. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.[8] وباختصار، فالكائن الجوهري فينا لا يُدرِكُ، هو يقرأ. لا يأتي القرآن برسالة أو بمعنى خارجي. الوظيفة الوحيدة للوحي هي أن يكشفنا لأنفسنا. يقول السهروردي "تعود إليك مهمة قراءة القرآن كما لو كان قد أُوحِيَ إليك أنت".[9] ليس الوحي ظاهرة يَقدِمُ على النبي من خارجٍ. ولا رسالةً يتلقّاها من مصدر آخر، كما نور المصباح، وهو مكلّف بنشرها حوله. إنه هو نفسه المعنى، وهو ذاته الرسالة. وهو ما جعل زوجه عائشة تقول عنه (ص): "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ".

---

[7]) سورة العلق؛ آية 6

[8]) سورة فصّلت؛ أية 53

[9]) Sohravardî, *L'Archange empourpré. Quinze traités et récits mystiques*, traduit par Henry Corbin, Fayard, 1976, p. 172.

حدَثُ البداية في الوحي المحمّدي هو إذًا حدثُ استبطان جذري. وعند القراءة، يصبح خطّ الحبر في الكتاب، وتصبح الحروف المرسومة، ذات أهمية معدومة تقريبا. يصبح الأهم حضور الذهن، القارئ الذي يرى في تلك العلامات الرمزية معنًى يضفيه عليها بنفسه من حياته. ويكون أول الإعجاز القدرة على تحويل العلامة الجامدة إلى إحساس، إلى فعل وإلى فهم ذكي. يخبرنا سارتر إن "الموضوع الأدبي لا روح له غير ذاتية القارئ: فانتظارات راسكولنيكوف ليست شيئا آخر غير انتظاراتي التي أضفيتها عليه؛ وبدون نَهَم القارئ ذاك ستبقى تلك الرموز علامات فاترة؛ وكرهه لقاضي التحقيق الذي يستجوبه ليست غير كرهي أنا الذي استحضره، والذي تتمثله العلامات، بل إن قاضي التحقيق ما كان له أن يوجد دون الكره الذي أحمله له عبر راسكولنيكوف؛ فهو الذي يحركه، هو لحْمُه".[10]

عندما نقرأ رواية، فإننا نحقق تلك المعجزة المتمثلة في تقمص الشخصية مع الإبقاء على ذواتنا. نماثل أنفسنا بالبطل لنعيش حياته – وإلا لما كانت القصة

[10]) Jean-Paul Sartre, *Qu'est-ce que la littérature ?*, Gallimard, coll. « Folio essais », 1995, p. 52.

ذات معنى – ، ولكن دون أن نُقصرَ أنفسنا عليه. نحن لا ننسى كوننا قرّاء. لا يمكن لتلك الشخصية الروائية أن تخطف منا هويتنا في أيّ لحظة من اللحظات. والأمر في الحياة العامّة سيان: يمكننا التفكير في هذا الشيء أو ذاك، ويمكننا التنقل هنا وهناك لتصريف شؤون حياتنا، مع الإبقاء على ذواتنا باختلاف السياقات وتنوعها. نحن نقرأ كتاب حياتنا.

إن تلك الطريقة الربّانية في الكشف عن نفسه تعالى، بفعل القراءة، تُظهر القيمة التي يحتلها الكتاب في الإسلام. أن تقرأ القرآن لا يعني إدراك معنى خارجي، بل قراءة "ذاتك"، أنْ تجد المعنى الخاص بك. هناك استيعاب للمعنى يقترب من استيعاب المواد الغذائية التي تمرّ في دمنا، التي تصبح **نحن**. يتعلق الأمر بمعنى وجودي لا بمعنى عقلاني. فالقراءة هي الفعل المؤسس لكل جماعة. وهذا هو السبب الذي يجعل الديانات السماوية الثلاثة تقوم على الكتاب، ونطلق على من ينتسبون إليها أهل الكتاب. فلكل أمّة كتابها: التوراة لليهود، والأناجيل للمسيحيين، والقرآن للمسلمين.

لا وجود لحضارة بدون قراءة. وإذا ما هُجِرت القراءة يسقط العقل من جديد في عالم المُدرَكات ويتجاهل نفسه كحامل وحيد للمعنى. الحضارة "معنى": وكل

واحد يريد أن تكون لحياته معنى. أما إذا تخلت الحضارة عن القراءة، فإنها لن "تصنع" معنى. وتصبح ظاهرة تافهة. ذاك هو السبب الذي جعل النبي يشجّع على تعليم القراءة.

إن تعويض القراءة بالصور المرئية في عالمنا الذي يتميز هو نفسه كونه عالم الصورة، يُعتَبَرُ جريمة ضد العقل. فما ترك جيلٌ القراءة إلا مُنع العقل من طبيعته الخاصة.

المعنى

يجب أن نجد معنى حياتنا في أنفسنا لا في خارجها. وقد أنجز ديكارت عملا محمّديًا بانكفائه على ذاته: "أقنعت نفسي بأنّ العالم لا يحتوي على شيء، بأنْ لا وجود لأيّ سماء، ولا لأيّ أرض، ولا لأي أرواح، ولا لأيّ أجسام؛ ألم أقنع نفسي أنني لا شيء أصلا؟ بالطبع كلا، ما كنتُ أشك في كوني كنت أقنع نفسي، أو أنني فقط توهّمتُ شيئا".[11] اكتشف ديكارت أن الحقيقة الوحيدة المانحة للمعنى تتلخص في كلمة واحدة: **أنا**. كل وجود لنا يتركّز حيث نحن،

[11]) René Descartes, *Méditations métaphysiques*, Hatier, 1999, p 30

هنا، في عقلنا. نحن حضورنا العقلي. وكل واحد منا، مهما كانت مواصفات مغامرته النفسية، يُجيب بالقول "أنا" عندما نناديه. وهو يعترف للتوّ بحضور نفس الأنا في الآخر، عندما يخاطبه بـ"أنتَ". إن هذا الإحساس بالحضور في الذات طبيعي عند كل البشر. كل واحد منا يشير إلى نفسه بوضع إصبعه على قلبه. "هكذا نقول عن أنفسنا "أنا"، عبر الإشارة إلى أنفسنا في المكان الذي يوجد فيه التفكير؛ هناك يوجد التعيين، عندما يتمّ بطريقة مناسبة"، كما يقول كريسيب *Chrysippe*.[12]

تبدأ كل الأديان وكل الفلسفات البداية الصحيحة، وتلك البداية هي الـ"أنا". ما الذي سيبقى من العالم، من كل ما يبدو أنه يحيط بنا، إذا لم نكن نعرف أنفسنا بشكل مباشر عن طريق العقل؟ لا شيء. إن حضورنا لأنفسنا هي الضمانة الوحيدة بوجود كل شيء. الله نفسه يتسبب في إنّية يوحي إليها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.[13] لا تقتصر الآية على إقرار أن الله

---

[12]) Cité par Gilbert Romeyer-Dherbey, dans son article « Michel Henry et l'hellénisme », in *Michel Henry. Pensée de la vie et culture contemporaine. Colloque international de Montpellier*, Beauchesne, 2006, p. 44.

[13]) سورة الإخلاص؛ آية 1

واحد، كمبدأ مجرد. هو يبدأ بـ"قُلْ"، أنت. وهذا التوكيد يتجذّر في الذاتية البشرية. لا توجد خارجها، أي خارج الـ"أنا". سيقال إن ذلك الأمر أُعطي إلى ذات مُختارة، النبي شخصيا. ولكنه في الحقيقة موجّه إلى كل واحد فينا، إلى كل ***إنّيّةٍ***. لأن النبي نفسه لا يوجد إلا من أجل ذاتية حيّة تعترف به ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.[14]

ولهذا السبب قال الرسول "مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ". ويفسر ابن عربي هذا الحديث بطريقة ديكارتية: "فإنه ما يعرف أحد من الحق إلا ما تعطيه ذاته".[15]

والوحي يعيدنا إلى ديارنا، حيث يسكن عقلنا ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.[16]

السؤال الكبير الذي يُطرح إذًا هو: "ولكن ما الذي يمثّله هذا الذي هو أنا ؟".[17] يجيب القرآن عن ذلك السؤال الأساسي في مستهل السورة الأولى من سور الكتاب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقد أُطلِقَ على النبي وصف ﴿رحمةً للعالمين﴾. يعني ذلك أننا نعيش،

---

[14]) سورة التوبة؛ آية 128

[15]) Ibn Arabî, *Le Livre des chatons des sagesses*, vol. II , Albouraq, 1998, p. 688.

[16]) سورة الأنبياء؛ آية 10

[17]) René Descartes, *op cit.*, p. 35.

ابتداء من هذه اللحظة، في عوالم متعددة. هناك عالم الحقائق الجسمانية، المُدرَكِ عبر الطريق الحسّي. وهو الذي نقوم فيه بأعمالنا اليومية. وليس علينا أن نبخّس هذه الحياة، لأنها مقدسة. كان النبي (ص) يعيش حياته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾.[18] هو عالم الأجسام. ولكننا غير مسجونين فيه. فالفكرة، والشعور، والقول، والإحساس الذي ينتابك وأنت تقوم بأداء فعل، كل ذلك لا يخضع لهذا العالم. نقول أحيانا يجب "وضع كل شيء على الطاولة" (بمعنى الكشف عن كل الأوراق). ولكن لا أحد رأى يوما فكرة أو إحساسا فوق طاولة أو تحت البساط. ولا يكفي أن نفحص الدماغ جزءا جزءا، فلن نكتشف أثرا لفكرة أو لشعور في تلك المادة الهلامية.

عندما نفكر أو نحسّ، نكون قد فارقنا الأرض. قد تكون آذاننا قادرة على اقتناص الأصوات، ولكنها ليست في وارد القدرة على إدراك المعنى، أو على فهم خطاب. أما الإصغاء، وإدراك المعنى، فهو من مزايا العقل. لا وجود لأيّ صبغة عضوية في ذلك الفعل.

[18]) سورة الفرقان؛ آية 20

إن القدرة على فهم ما يقوله لي شخص ما تأتي من عالم الأرواح. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾.[19] يمكن لأعيننا أن تلمح الأشكال المادية ولكنها عاجزة عن قراءة حضور الأشياء. وعندما نقرأ كتابا، فليست أعيننا هي التي تقرأ، بل نحن، الحضور الحيّ.

نحن نعيش إذًا في عوالم عدّة، ترسم فينا نوعًا عموديا. كلٌّ منا يشعر في ذاته بسهم، بوصلة يتّبعها إذا ما أراد "التسامي"،[20] القيام بارتقاء ذاته. ولعل ذلك الاتّجاه الرأسي هو ما تتحدث عنه السورة الأولى من سور القرآن: الصراط المستقيم. إنه السبيل الذي يضعنا في اتصال مباشر مع ذواتنا.

وكلما واصلنا الاعتقاد بأننا نعيش فقط في عالم الحسّ، فإن مآلنا الانتفاء. لأن طبيعة المادة أن تكون محرومة من الإحساس بالحضور. فالكرسي لا يشعر بوجوده حول طاولة أمامه. وإذا نمتُ بجانب زوجتي، وكانت هي بدورها نائمة، وإذا وقع التفريق بيننا ونحن نيام،

---

[19]) سورة المجادلة؛ آية 7

[20]) السهم "في اتجاه الصعود [...] يجب أن يُأخَذَ باعتباره الرأسي، كما يدل عليه جذع الكلمة نفسه (قام)"
(René Guénon, *Le Symbolisme de la croix*, Éditions Vega, 1984, p. 134).

فإننا لن نتألم للفراق، لأن أجسادنا غير واعية بما يفعلونه بنا. إن هذا العالم الفيزيائي الذي يبدو لنا حقيقيا جدا، والذي يبدو أنه كان موجودا قبل ولادتنا ولا شك أنه سيبقى موجودا بعد وفاتنا، هو في الحقيقة عالم العَدَم. وإذا ما أردنا أن "نعيش سويًا"، فإن ذلك التحقق غير ممكن الوقوع في عالم مادي هو في الحقيقة عالم "للموت". "دع الموتى يدفنون موتاهم".[21]

إن التقاليد الدينية، والفلسفات، والمقاربات النفسية، مادية كانت أم تلك المهتمّة بالعقل، تتفق جميعها في نقطة واحدة على الأقل: فهي تصف الإنسان كمُبتلى بنقصٍ مؤلم. كلٌ يقول ذلك على طريقته. يُعلّم البوذيون الناس أن الحياة معاناة؛ ويتحدث اليهود عن سقوط أول زوج بشري أُطرد من الجنّة بسبب تناوله ثمرة المعرفة؛ ويقول المسيحيون إن الإنسان يحمل في نفسه ندبات الخطيئة الأصلية؛ كما يقول الهندوس بالحدّ والضيق والخديعة؛ والمسلمون بالخيانة والشرك؛ أما الماركسيون فإنهم يركّزون على الاغتراب الناتج عن العمل الذاتي ويرون في المجتمع الخالي من الطبقات

[21]) إنجيل لوقا؛ الإصحاح 9، آية 60

المخرج الوحيد الممكن. يعيد نيتشة الألم إلى ضعف إرادة القوّة. أما فرويد فيُظهر الإنسان المغترب بلا وعيه؛ وهو يبحث عن تحريره من ثقل الماضي عبر تقنية التحقيق الذاتي.

ولا ينقص الإنسان إلا شيئا واحدا: ينقصه الحضور. كل ما يمكن توفيره له من خارجٍ لن يروي ظمأه أبدًا، لأن أشياء الحياة لا تُحدّثُه، ولا تنمّي شعوره بالحضور. وهو يريد أن يجد حضوره هو في كل الأشياء. يشير الشيخ العَلَوي إلى أن الإنسان "واع بالطبيعة الحيوانية عندما يصيبها الاضطراب. وعلى العكس من ذلك فإنه أقلّ تأثرًا باقتلاع الأشجار مثلا. وهو أيضا يتأثر بمنظر عالم النبات أكثر من تأثره بعالم الجماد. ويعود شعوره المرهف تجاه عالم الحيوان إلى قوة الروابط التي تربطه به [...] وترتبط قوة المشاعر الإنسانية أيضا بنسبة الإنسانية فيه. فهو قادر، إذا كان خلوًا من أية إنسانية، على عدم الإحساس بأي شيء أمام منظر إبادة الجنس البشري برمّته، في حين يتفاعل مع أصغر حيوان".[22] نحن أكثر تعرُّضًا للتأثر أمام الأشياء المشحونة بالحضور. وندخل في رنين معها لأن

[22]) Cheikh al-'Alâwî, *Recherches philosophiques*, Éditions Les Amis de l'islam, p. 16

حضورنا الذهني ذاته يتعرف على نفسه فيها. إن حياتنا موجّهة نحو تكثيف الحضور.

الرابط

الطبيعة البشرية ليست طبيعية على الإطلاق. فنحن لسنا جزءًا من الطبيعة. ويمكننا القول تقريبا الـ"أنا " هي طبيعة معاكسة، وهي لا تخضع للقوانين المشتركة. نحن نغرس شجرة، فتنمو. والأغصان تتكاثر. وتظهر البراعم والأوراق والأزهار، ثم تثمر. وتسقط الثمار في الأرض. وعندما تسقط الثمار تكون الشجرة قد حققت مصيرها. وهي تمتد إلى شجرة ثانية. فجني الثمار هو، بشكل من الأشكال، هدف حياة الشجرة. إنه مسار دوري يُبرزُ أن الحياة الطبيعية تَنزعُ نحو التكرار والتوليد والتوسع المستمر عبر التكاثر.

ما الحياة البشرية ؟ أقول إن الإنسان هو مُضادّ الطبيعة، أو هو فوق الطبيعة. بالرغم من كون الطبيعة المادية حاضرة في جسمه: فالأيدي والأرجل والجذع تنمو جميعها، والأفكار تولد، والمشاعر تُزهر، والإنجاب يعطي ثمارا بشرية، ما يسمح باستمرار الحياة. كل شيء طبيعة. ما الذي يأتي لاحتضان كل ذلك؟ إنه الإدراك العقلي: فالإنسان يكتشف قوانين

الطبيعة. في حين أن الكائنات ما تحت البشرية عاجزة عن ذلك. يكتشف الإنسان تلك القوانين، ويستعملها لصالحه ليصبح سيّد الطبيعة.

ولكننا لا نتوقف هناك. فإذا قيل إن الحياة مقتصرة على العقل، فستكون قاتلة برتابتها. الحياة هي رغبة قبل كل شيء. رغبة في النموّ. هناك في الأول الرغبة في التملك. أحاول أن أنمو عبر الخارج. ولكن لا شيء يوحي لي بالنمو، بأنه يكبر في الحضور. عندها أَلْتَفِتُ "أنا" إلى ذاتي ألتمس منها الحضور الخالص. لا شيء في الخارج يمكنه إشباع نهمنا، فنحن نحمل في ذاتنا معنى الإطلاق. وكلما حضر شيءٌ قيّمناه — بوعي أو بدون وعي — بمدى قربه من القيمة المطلقة التي نحملها فينا. فيتبخّر ذلك الشيء. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾.[23]

ليس الإنسان كائنا عقليا، لقد خُلق من الرغبة. ولكن ما طبيعة تلك الرغبة ؟ أتمنّى. أحصل على الشيء. فأرغب في المزيد، مُجدَّدا ودائما. لا حد للتمنّي. والإنسان لا يقنَعُ أبدا، مهما حصَّلَ: "دائما أريد المزيد"، في كل المجالات: المادية، والفكرية، والروحية.

[23]) سورة القصص؛ آية 88

وطبيعة الرغبة هي ما يؤكد أنه لا نهائي. لا حد للتمنّي. وإذا كانت الأماني مطلقة، فهل نحتاج لمن يعلّمنا إياها؟ كلا. إنها الفِطرة. نحن نملك ذوق ذلك المطلق، ومعرفته، وتجربته. وإلا لِمَا نُردد "هل من مزيد"؟ يقول القدّيس برنارد إن "الجشَع هو محبّة الله التي تتجاهل نفسها".[24]

ما نسمّيه الـ"**أنا**" لا يعدو كونه هوية جامدة. هو صنيعٌ، فعلٌ. نحن في وضعية التجاوز الذاتي الدائم. ومعادلتي الشخصية ليست غير المساواة: أ = أ. هو تحقق، هو تجاوُزٌ: أ > أ. أنا في كل مرّة أكثر من نفسي. وفي كل مرة أختبر فيها ذاتي فوق الأرض، أشعر مباشرة أنني مقيّدٌ إلى أصل أتبعه ويتجاوزني دوما. الدين هو ما يربط. فالشعور الديني يستيقظ كلما أحسستُ بالحاجة إلى استرجاع رابطي. أريد أن أعيد الوصل مع ذاتي، مع ذلك الـ"**أنا**" المتدفّق من النبع. يعبّر هنري برغسون عن ذلك بكلمات رائعة: "إن نفسًا قادرة وجديرة بذلك الجُهد لا تسأل نفسها حتى إذا ما كان المبدأ الذي تتصل به الآن هو السبب المتعالي لكل شيء، أو هو فقط سبب الخلافة في

[24]) Étienne Gilson, *La Théologie mystique de Saint Bernard*, Vrin, 1986, p. 62.

الأرض. يكفيها الإحساس بأن شيئا يغمرها، دون أن تذوب فيه، كائنا قادرًا أكثر من قدرتها، كما الحديد أمام النار تحيل لونه إلى الحُمرة. ويصبح تمسكه بالحياة عدم فَكاكٍ من ذلك المبدأ، سعادة في سعادة، محبّةٌ في ما هو محبّة أصلا".[25]

يكمن ذلك الرابط في تجاربنا الأكثر تفاهة. أضع يدي على كأسٍ باردة: أنا من يُحسّ بالبرودة. لا أحد يمكنه الإحساس بها في مكاني. هو موقف ذاتي، شعور أملكه في خاصتي. ولكن ليس **أنا**، الأنا الأرضي، من يمكنه خلق الإحساس بالبرودة. هو ليس خارجا عني، ولكني لست من صنعه. هو يفرض نفسه عليّ، قبل أي قرار آخذه حتى بالقبول أو بالرفض. نفس الشيء مع العاطفة. فالرجل أو المرأة عندما "يقعان" في الحب يقومان بالتجربة الأكثر ذاتية. هو، أو هي، فقط من سيجد ذلك الإحساس في نفسه. في حين لا أحد يمكنه خلق الشعور بالحب. يمكن لذلك الشعور أن يسكنه، ولكنه ليس مالكًا له. هو عطاء. وإذا ما ارتفعنا أكثر فإننا سنكتشف أن حضورنا الشخصي هو الـ "**نحن**"،

---

[25]) Henri Bergson, *Les Deux Sources de la morale et de la religion*, PUF, 1932, p. 224

ولكننا عاجزون عن توليده بقُوانا الخاصة. نحن حاضرون لأنفسنا، ولكننا غير قادرين على التدرّج بأنفسنا في ذلك الشعور. نحن نعيش في حياة كبرى، هي الـ"**نحن**"، دون أن نكون **هي**.

والملكات التي نستعملها ليست لنا. هي ملكات ربّانية: البصر والتفكير والكلام والسمع كلُّها أفعال إلهية. هي مِلْكُ الحَضْرَة التي تسمح لنا بالتمتع بها، دون إمكانية المطالبة بها كاستحقاقات شخصية، لاستعمالها بشكل خاص: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[26]

ولهذا السبب فإن العين تريد أن ترى أكثر، والأذن تبحث عن سماع أشياء جديدة باستمرار. لا في عالم الحس، بل في الروح أيضا. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.[27]

وتلك الرغبة عنوان لنمو داخلي. نحن نبحث عن معانقة الحضرة المطلقة المتجسدة في كل شيء. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.[28] وكلما بقينا سجناء الوضعية الذاتية، بمعنى الروح التي تحُلّ في بدنٍ، يتطلع

---

[26]) سورة الشورى؛ آية 11

[27]) سورة طه؛ آية 114

[28]) سورة البقرة؛ آية 115

إلى العالم الخارجي عبر تلك النوافذ، أي العينين، فإننا سنصطدم بالعوامل الخارجية، بالغيرية، بالعدائية. معلومٌ إن "الآخرين هم الجحيم". وهو قول علي، زوج بنت النبي، الذي عبّر عن ذلك في كلمات قليلة:

" أَنْتَ الكتَابُ المُبينُ
الـذي بِأَحْرُفِهِ يُظهِرُ الـمُضْمَر
وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ،
وفيك انطوى العالمُ الأكبر".[29]

وحينما نرتبط بالحَضْرة التي تمنّ علينا بالحضور أمام أنفسنا، فإننا نجد نفس تلك الحضرة في كل ما يعترضنا. وندخل في صدى الكائنات والأشياء؛ نجد رنينها في أنفسنا، دون تصدعات. نعيش في عالمٍ من الانطباعيات النوعية، أكثر منه عالم الأحاسيس الإدراكية.

وعلى عكس ما نتصور فلسنا مرتبطين بالمادة. نحن مرتبطون بالانطباعات التي تتركها فينا الأشياء التي نصفها بالمادية. يمكن أن تكون تلك الانطباعات سماوية أو جهنمية بحسب المادة التي نشركُها في أنفسنا. وإذا ما اعتقدنا أن إدراكاتنا تعود لنا، فإننا

[29]) Mullâ Sadrâ Shîrâzî, in *Le Verset de la Lumière. Commentaire*, traduit par Christian Jambet, Les Belles Lettres, 2009, p. 74

نهوي إلى العالم الحسي. ننسى أننا قُرّاء، وأننا نقلل من أنفسنا لنصبح شخصية الرواية. نحن مُستلَبون في حياتها، منقطعون عن أنفسنا.

إن من أنصت إلى الأمر "إقرأ" في نفسه، سيجد نفسه بحضرة نفسه، في الحضرة الإلهية التي تكشفه لنفسه، الآن، حالّا، فورا.

ومن خلال تكثيف فعل الوجود الذي نأتيه، نصبح مطالبين بأن نحتضن، وأن نُحيط بحضرتنا كل الموجود. ذاك رمز سفينة نوح. يرفض ولد نوح الصعود إلى السفينة ويشير بإصبعه إلى جبل يحتمي به من مياه الطوفان. ذلك الإصبع الذي يشير إلى حقيقة خارجية هو إصبع الفكر الذي يتصور نفسه متجذّرا في العالم. وهو يغرق في تفكّره.

سفينة نوح هي رمز شخصيتنا النفسية، ومختلف قُوانا الإدراكية والعملية التي تحملها مياه الحياة. نحن نمتطي ظهر الحياة. تعمل قدرات الركوب بفضل الاحتكاك بالماء الذي يحمل كل شيء. يرتفع مستوى المياه دون عناء إذا قبلنا أن نكون داخل السفينة، في قلب عقلنا، أن نكون على وعي بأن كل واحدة من

ملكاتنا محمولة بحضور يمنحها الحياة. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.[30]

فكيف نؤسس لجماعة من الأحياء طبقًا لهذه القاعدة؟

القيم

تقوم الجمهورية الفرنسية على القيم التي يعرفها كل العالم: حرية، مساواة، أخوّة. وعندما نصدع بهذه الكلمات الثلاث نشعر بقداسة فيها. تسري فينا قشعريرة، كما لو أنها تخبرُ عن شيء أساسي.

الحرية هي القدرة على الاستعمال المكثف لقدراتنا على الفعل والتفكير والإحساس. أن تكون حرّا يعني قُدرتك على أن تكون صاحب أفكارك وأفعالك. فالإنسان حرٌّ تمامًا في استخدام ملكاته في الاتّجاه الذي يريد. فقد وهبه الله تلك الملَكَات دون تحفّظ أو شرط. وهو حر في أن يسيء استعمالها عبر ارتكاب الخطأ القاتل باعتقاده أن تلك القدرات هو من يمنحها لنفسه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.[31] إن منحة الحرية غير

---

[30]) سورة الأنبياء؛ آية 30

[31]) سورة السجدة؛ آية 9

مشروطة لدرجة أن الإنسان يمكنه نفي وجود الوهّاب تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.[32]

ويشبه هذا السراب ذاك الذي يتلبّس شخصا يظهر لك في المنام، ويتصور أنه يفكر ويفعل ويشعر في عالم الأحلام بفضل قدراته الشخصية، متناسيا روح الحالم. وعندما نعتقد أننا بذلك نستطيع الفعل في الحياة العامة بما نملك من قدرة، أي أننا نتحكم في مَلَكاتِنا وكأنها صادرة عنّا، فاعلم أننا في حالة الحُلم. والرسول (ص) يقول إن هذه الحياة المنفصلة عن أصلها هي "حُلمٌ داخل حُلم". إن حلم الشخصية المركزية التي تمثّلني في المنام، داخل عالمٍ، هو أيضا كوْنًا سُرياليًا. والإنسان النبيه إلى الواقع يعلم أنه وحده من لامَسَ أصل إحساسه بالوجود هو الحرّ تمامًا. "الحُـرُّ بامتياز هو ما كان عصيًا عن الحدّ، ما كان مُطلَقًا؛ ولا تحمل هذا الشرط وتُصبح مبدأه في آن إلا القوة الأولى، العقل الكوني".[33]

---

[32]) سورة يس؛ آية 77

[33]) Alexandre Saint-Yves d'Alveydre, *Mission des souverains,* Nord-Sud, 1948, p. 280

لستُ حُرًا فقط "**لـ**" أتصرّف وأفكر على طريقتي. أنا قبل ذلك حر "**من**" كل أشكال التكيّف، وأنا حر خاصةً من نفسي، من ذاتي الشخصية. ومثلما الشخص الذي يقرأ رواية، فإن من يتماثل مع الشخصية الرئيسية ليستمتع بالقراءة هو غير مقيّد بنفسية الشخصية والوضعية التي يجد نفسه منخرطا فيها. يمكنه في كل لحظة غلق الكتاب، أو القفز عن قراءة فصل من الفصول. يعمل على ألاّ يكون سجين تلك الشخصية. ويتأكد ذلك في نشاطاتنا اليومية. يمكننا متابعة فيلم تلفزي بتفاعل كبير، ولكن عندما نُدعى إلى الأكل نغادر في التوّ وضعيتنا النفسية كمتفرجين لنتقمص شخصية الأب أو الأم الذي (التي) يدير الحوار حول مائدة الطعام، دون أن يتمكن أي دور من القبض على هويتنا. سنكون في كل مرة أكثر من الدور الذي نلعبه في العالم.

يندّ الإنسان عن كل الحتميات بفضل المُطلق الكامن فيه. لستُ أبدًا سجين سمات فيزيولوجية أو خصائص نفسية. تنتمي تلك العناصر إلى أبطال المغامرة الدنيوية التي أعيشها على هذه الأرض، ولكن بصفتي قارئا لا أُختَزَلُ أبدا في ذلك. لا يمكن أن أكون مُسطَّرًا من شيء خارج عني. يمكن للمجتمع أو

لماضيّ أن يكون له تأثير ما على طباعي، ولكن ليسوا بأي حال من الأحوال مسؤولين عن كينونتي، فبفضل كياني أستطيع التخلص من ثقل الماضي وإكراهات المجتمعي.

هو شعور قوي جدا داخل كل واحد منا. لا أحد يقبل أن يُختَزَلَ في مواصفات تحملها بطاقة هويته الإدارية، أو في ماضيه، في وضعيته، في مرحلة من مراحل حياته ...الخ. كل واحد منا يشعر، في قرارة نفسه، أنه حر تجاه تلك الإكراهات، وأنه سيد نفسه. وحده من يُخفّض لواء الحياة يستطيع تعريف نفسه بأنه ذلك الرجل أو تلك المرأة الذي (التي) "صنعتني الحياة"، أي نتيجةً للأسباب الماضية، حزمة من المحددات. نشعر بأننا أكبر مما يمكن أن نفكر فيه، أو نقول، أو نفعل في لحظة معينة. وأن تكون نفسك، أي أن تلك المعجزة التي تجعل كل واحد منا ينكشف لنفسه، لا يمكن أن تُختزَلَ في أي شكل من أشكال التجلي. الحرية تفترض أن نكون متجذّرين في الروح.

الروح نفخة إلهية، وهي نَفَسُ الحياة. والروحانيون هم الوحيدين الأحرار. هم ليسوا ضمن العالم. هم يُذكّرون الناس بأصلهم الروحي. ويحملون بداخلهم نَفَس الحرية. حضورهم في المجتمعات مسألة حيوية. وبدونهم

نصبح عُرضة للنسيان والتشتت، وخاصة في عصرٍ قُدرةُ مسارات غير شخصية، كالإعلامية، على الامتصاص الهائل تفرض نفسها أينما ذهبتَ. وبدونهم تصبح الحياة، في معناها الدقيق، غير قابلة للتنفس. وبدون الوعي بوحدة العقل، لا يمكن للمجتمع أن يوجد، هي فقط تجميعٌ لفرديات منعزلة لا تشعر بأي نقطة التقاء بينها. رجل عاقل واحد يمكنه إعادة بث الروح في المجموعة. وكما يقول المعلّم إكهارت: "بوركتْ المملكة التي يسكنها أحد هؤلاء؛ في لحظة يمكنهم القيام بخير دائم أكثر من كل الأعمال الخارجية التي قمنا بها في يوم من الأيام".[34] المساواة هي أيضا هِبةٌ من العقل الخالص. "المساواة بين الناس تقوم على مبدأ السلطة الأساسية التي يخرج منها العباد ويدخلون فيها؛ ولا يوجد التساوي بينهم إلا في ذلك الجوهر نفسه، وخاصَتُهُ الهوية".[35] كل واحد منا يحمل هوية. كل واحد يشعر أنه مقيّدٌ إلى

---

[34]) *The Works of Meister Eckhart, Doctor Ecstaticus*, vol. I, John M. Watkins (Londres), 1952, p. 102,
ترجمة شخصية [إلى الفرنسية] قمت بها انطلاقا من الترجمة الإنجليزية التي أصدرها C. de B. Evans

[35]) Alexandre Saint-Yves d'Alveydre, *op. cit.*, p. 280.

ذاته، برباط قوي لا فكاك منه. لا أحد بإمكانه الخروج من حياته الخاصة، من شعور الإنّيّة، الذي أُعطِيَهُ باعتباره ما في ذاته من حميمية. يمكنه الخروج من أفكاره، ومن أفعاله ليتأملها من خارج، ويحمّلها – بأثر رجعي – تقييما أخلاقيا مثلا. ولكن ذلك الصنيع الاستبطاني لا يمس غير الشخصية النفسانية. ومن يحقق ذلك الصنيع، في اللحظة التي يحققه فيه، لا يمكنه ترك مسافة بينه وبين نفسه. الأنا التي أكونها في كل مرة لا يمكنها أن تتخلص من نفسها. هي متصلة بذاتها برباط أمتن من نفسه، لأن القوة التي تُلحقه بذاته هي الله عينه. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾.[36]

وأيًا كانت الفروق النفسية بين الناس فإنهم من روح واحدة. والروح القُدُس هو من يُلحِقُ كل روح بروحها. ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.[37] فالأمر هنا نقطة تقاطع (*in-jonction*)؛ والحركة التي يتم بموجبها التقاء الواحد منا بذاته، قبل أن يتمكن من اتّخاذ أي قرار، هو أمر إلهي. أنا مطلوب مني أن أكون أنا، أحببت ذلك أم كرهتُه. وعلى سبيل المثال، فلا أحد

[36]) سورة السجدة؛ آية 9

[37]) سورة الإسراء؛ آية 85

يمكنه رفض الظهور الفُجائي للـ"أنا" المتحرك في داخله، وهو يعيش تلك الحالة المعجزة المتمثلة في استعادة الوعي عند الصَّحْو من النوم. لقد مُنِحنا شخصيةً، من وهّابٍ يضمّنا إليه ويأمرنا أن نكون أنفسنا.

إن تلك الجماعة العقلية هي ما يمكّننا من فهم أنفسنا. يستحيل على أحدنا فهم ما يقوله الآخر إذا كان منغلقًا داخل المواصفات الشخصية لإنّيته المفكّرة. والتفاهم المتبادل أو حتى سوء الفهم يفترض قاعدة مشتركة. لا يمكننا أن نتفاهم، أو على العكس نختلف، إلا حول "نفس" الشيء. وإذا كان ذلك الشيء "نفسه" في عقلين مختلفين، فهو لا شك يصدر عن عقل علوي واحد، ويشتغل في عقول متفرقة ظاهريا. لا بد من نقطة مشتركة ليمكننا التواصل. "ما هو ‘‘تبادل العقول’’ أو ‘‘الصالح العام’’ الذي يجعل ‘‘التواصل ’’ ممكنًا ؟ إن نوعا من التفسير المتعالي، المتجاوز للأمبريقية، للـ‘‘قاسم المشترك’’ أصبح أمرا لا مفر منه. وإذا تمكنت تجربة مشتركة من أن يتقاسمها عقلان ‘‘فرديان’’، وإذا استطاع الاثنان ‘‘التعرّف’’ على نفس الشيء أو نفس الفكرة، فذلك لا يعني إلا أن العقول المعنية،

عقلُ صيني وعقل أمريكي على سبيل المثال، لا تختلف كثيرا عن بعضها البعض، من الناحية الفردية كما نتصوره، انطلاقا من التمييز الجغرافي للأجسام الصينية والأمريكية، التي نعتبر أنها تشتغل ''فيها''. ولو كان التفاهم المتبادل جزئيا فقط لتحدثنا عن تشابه العقول، بيد أنه عندما نجد أنفسنا أمام إدراك كامل، فإن مفهومًا لنوع من الإجماع، أو من وحدة الروح، يفرض نفسه علينا".[38]

وفي خاتمة كتابه الشهير "ما الحياة ؟ "، أعطى الفيزيائي أروين شرودنغر *Erwin Schrödinger* مثالا رائعا عن ذلك الإجماع العقلي: "في المنام نؤدي أدوارا عديدة في نفس الوقت، ولكن هناك فرقٌ واضح جدا. نحن واحد من تلك الأدوار؛ فيه نفعل ونتكلم بشكل مباشر، في حين نترقب، وغالبا ما يكون ترقبنا مشوبًا بالقلق، جوابًا أو ردّة فعل من شخص آخر، غافلين عن أننا نحن من يقود تلك الحركات وتلك الأقوال، تماما كما نتحكم في أقوالنا وفي أفعالنا".[39]

---

[38]) Ananda K. Coomaraswamy, *La Signification de la mort. « Meurs avant que tu ne meures ». Études de psychologie traditionnelle*, Archè, 2001, p. 114.

[39]) Erwin Schrödinger, *Qu'est-ce que la vie ?*, Christian Bourgois, 1986, p. 151 et 152

وحيواتنا تنساب كما الأحلام المستيقظة ما دمنا ‘‘نترقب’’ من الآخرين جوابا عن أفعالنا وأقوالنا، متناسين أن الأنا والآخر هما مجموع نفس الروح. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.[40] وإذا كانت روح الله واحدة فهي تتعدد بتعدد أرواحنا دون أن تنقسم. روح الله متعالية عن التجزئة. ونحن، في المنام، نفس الروح التي تأخذ أشكال كل الشخصيات بمحاوراتها، وشكل العالم بجباله ووديانه وقُراه الخ. وإذا كان لكل تلك الشخصيات حياة مشتركة فلأنّها تستمد هويتها من نفس الروح، هي روح الحالم. ما يخلق أوهام الحالم هو التغاضي عن وحدة روح خالق الحُلم، وتوزّعها في الأنفس التي تعتقد نفسها متفرّدة بعالم الأحلام.

إن لوحدة الروح العاملة في كل نفس أهمية بالغة. لأننا إذا كان بمقدورنا وضع مستويات في المِنَحِ والكفاءات والمؤهلات بين الناس، والانطلاق من ذلك لبناء تراتبية في المهام والوضعيات، فإنه يستحيل علينا وضع تراتبية للأرواح. الروح واحدة في كل واحد منا. والروح القدس هو نفسه الذي يربط كل واحد مع ذاته، أي الذي يضعه في تواصل مع نفسه. وفي

[40]) سورة الحجر؛ آية 29

عالم الأرواح الخالصة، لا وجود لتراتبية. كل الأرواح تساوي نفس القيمة. ونجد في فعل الوجود عملية هائلة من إلغاء التراتب. هي ديمقراطيةٌ ما بعد تشاركية. لأن الأنا في كل وحد منا لا يكتفي بالصدور عن الأنا الإلهية أو مشاركتها، بل هو نفخة الله تعالى. والأنا الإلهية هي نفسها التي تتجسد في كل واحد منا. وهي واحد معه. ومن هنا قول المسيح: " ليكون الجميع واحدا كما انك أنت أيها الأب في وأنا فيك".[41]

وتلك الهوية الأساسية هو ما يولّد الشعور بالأخوّة: "لا وجود للأخ الخالص، الأخ الكوني، باعتباره فكرة راديكالية؛ فخارج الأبوّة من يجعله أخ الأخ".[42] يولد الشعور بالأخوة من الانطباع بالتدفق من نفس المصدر.

إن إقامة أمة من الناس غير ممكن دون المرور بإدراك الأصل المشترك. لا بد أن يشعر أنّ إنّيته المهتزّة داخله تأتي من نفس النبض الذي يوحي للآخر شعوره بـالأنا. يسمح لنا ذلك بحل مشكلة "الذاتية المتبادلة" بشكل جذري. لا مسافة نقطعها لملاقاة

---

[41]) إنجيل يوحنا؛ الإصحاح 17، آية 21

[42]) Alexandre Saint-Yves d'Alveydre, *op. cit.*, p. 281

الآخر. كل واحد منا، انطلاقا من الـ"هنا" المتمثلة فيه، ودون الحاجة إلى التنقل للذهاب إلى "هناك"، يعلم في الحال إن الأنا المتمثلة فيه هي نفسها الآخر. لا وجود لفصل بينهما، وبالتالي لا وجود "لعمل" يجب القيام به للالتحاق بالآخر. الاختلاف موجود، ولكن لا وجود للفصل. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.[43] التعارف مع شخص يعني أن تعرف نفسك. والاختلاف عن الآخر تمنعني من الانغلاق داخل خصائصي الذاتية، وتمكّنني من تجاوز ذاتي في شكل آخر من الروح نفسها. وإذا لم أتفاهم مع الآخر، فذلك لأني لم أعد متصالحا مع ذاتي، وأصبحت أصمّ عن موسيقى ولادة روحي الخاصة من الروح القدس.

وفي كل مرة يوجد الأنا الإلهي في كل كائن بشري تامًّا ومكتملا. نحن لا نوجد قليلا، أو كثيرا، ولا بحماسة أيضا. نحن قطعًا. كل واحد مطلقٌ. والسبب أن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.[44] إن دور حضارة ما، أو مجتمع منظّم في

---

[43]) سورة الحجرات؛ آية 13

[44]) سورة المائدة؛ آية 32

اتّجاه عمودي، هو إعطاء كل واحد إمكانية أن يلاقي ذاته وأن يلتقي الآخرين ضمن وحدة الروح. وبذلك فنحن نرى أن إسلاما مفهوما بشكل جيد، ومُعاشًا بشكل جيد يمكن أن يكون، بالنسبة لمجتمعات الجمهوريات، عامل تطور. "بذلك قامت الثورة الفرنسية، دون أن تعلم، بالتعامل مع السياسة تماما كما فعلت مع الدين".[45]

المسؤوليـات

حان الوقت لاستخلاص النتائج مما سبق. لا وجود لجماعة طبيعية تقوم على تنوع الحاجيات الواجب إشباعها؛ أو ما نُطلق عليه غالبا "جماعة المصالح". وأن نترقب من "العولمة" أن تقرّب بين الحضور هو مجرد سراب. "إن المادة هي أساسا تعدد وانقسام، وبالتالي فهي مصدر للصراع والتقاتل؛ وسواء تعلّق الأمر بالشعوب أو بالأشخاص، فإن مجال الاقتصاد كان ولا يمكن أن يكون إلا مجالا لتنازع المصالح".[46]

---

[45]) Alexandre Saint-Yves d'Alveydre, *op. cit.*, p. 281

[46]) René Guénon, *La Crise du monde moderne*, Gallimard, 1973, p. 104

ليست الحاجات هي ما يقرّب بين الناس، ولكنها الروح. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[47] فالإنسان اجتماعيٌ بروحه [بطبعه]. وما يدفعه إلى الاقتراب من جاره هو الإحساس بمقاسمته نفس الكائن الأعظم. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.[48] يشعر الناس بالقُرب من بعضهم كلما اقتربوا من ذواتهم، من حقيقة أرواحهم الخاصة. وهم ينقسمون ويتفرّقون كلما ابتعدوا عن الجوهر المشترك. يمكنني الحديث عن جسمي باعتباره مختلفا ومنفصلا عن جسمك في المكان. ويمكنني الحديث عن نفسيتي باعتبارها معاكسة تماما لنفسيتك. العقل نفسه عاجز عن التقريب بين القلوب. واتفاق شخصين حول نفس الحقيقة العلمية، 2 + 2 = 4 على سبيل المثال، لا يعني اتفاقهما ضرورةً حول معنًى عميق ووجداني. ولكن لا يمكنني الحديث عن روحـ"**ـي**" باعتبارها مقطوعة راديكاليًا عن روحك. كل واحد هو روحه، ولكن روحه تنبع من الروح القُدُس، من

---

[47]) سورة الأنفال؛ آية 63

[48]) سورة ق؛ آية 16

الواحد تعالى. ويتمظهر هذا الواحد في كُلٍ منا بشكل مختلف. ما يتحقق هو نفس الذات، ولكن بإنّية كل واحد منا. ﴿أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ﴾.[49]

لذلك لا نجد في السورة الأولى من سُور القرآن "إهدني الصراط المستقيم" بل "إهْدِنا". الاختلاف لا يعني الانفصال. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛[50] ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.[51] وهو نفس المعنى الذي تذهب إليه الآية: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.[52] أينما كنتَ مع نفسك، ماديا، نفسيا، في كل ما يحدد ذاتك الأرضية، فإن الله معك، بنفس الحجم الذي يعطيه تعالى لمعنى الـ"أنا" في كل واحد منا.

يعطي النبي أهمية حيوية لأمّته. تلك الأمة التي تقوم على حلول أرواحنا في الواحد الأحد. لقد تعودنا على الاعتقاد بوجود عالم واحد ومليارات عديدة من الأرواح. ولكن العكس هو الصحيح: توجد روح

---

[49]) سورة النحل؛ آية 2

[50]سورة الطارق؛ آية 4

[51]) سورة هود؛ آية 56

[52]) سورة الحديد؛ آية 4

واحدة، إنّية واحدة تعمل في كل الذوات، ويوجد عدّة مليارات من العوالم.

هذا ما يبعث فينا الشعور بالمسؤولية. لستُ وحيدا. الأنا التي تعطيني كينونتي، وقد انكشفت لي عبر الأنا العليا العميقة الكامنة فيّ، هي نفسها التي تجعل من الآخر حاضرًا لنفسه. أنا مسؤول عن إنّيتي كمسؤوليتي عن هذا الآخر الذي هو أنا أيضا. تعود عبارة "مسؤول" (*Responsable*) إلى فعل "أجاب" (*répondre*). أجاب "عن"، ولكن أيضا أجاب "بـ". ‘‘فقال الرب لقايين: أين هابيل أخيك؟ فقال: لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ ’’.[53] بلى، يجب أن أجيب عنه كما عن نفسي، كما أن الله يجيب عني: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.[54] ويكون ذلك الجواب دائما فرديا، ومحسوسًا، ومناسبًا.

وهذه الأنا العلوية التي تولّد فينا الإحساس بـ"أنا"، أو بالـ"أنا موجود" لا تُعطي كائنا مجرّدا. ففي كل مرة تلد أنا حقيقيا ومميزا. و"الآخر" ليس هو البشرية بإطلاق، بل أنت، القريب. "أنا بشكل عام"، أو "أنا في المدّة

---

[53]) سفر التكوين؛ الإصحاح 4، آية 9

[54]) سورة البقرة؛ آية 186

الأخيرة" هي مجرّد أفكار، تجريدات، صورٌ عن روح تفتقد الوجود الجسدي. أنا، هو الأنا الموجودة الآن، في التوّ، حالا، في رأس النقطة الأكثر حدًّا في حاضري الشخصي، مسكون بهذه الفكرة أو تلك، يُحركني هذا العزم أو ذاك، ويؤثر فيّ هذا الشعور أو ذاك. أنا لا يمكن أن أكون "عامّةً". أنا دائما أنا، فعل يُصرَّفُ مع المتكلم المفرد. أنا لستُ هو. "**الـ**" أنا بمعنى الكينونة المجرّدة تشبه "الفرنسي المتوسط". لم يتعرّف أحد إلى "الفرنسي المتوسط" ولم يصافحه.

لذلك فـ"**الـ**"مجتمع (بالتعيين) غير موجود، لا يوجد غير أفراد أحياء. لم نر قطّ المجتمع يحفر حفرة أو يبني مدرسة. نحتاج إلى أفراد للقيام بذلك. لا يوجد المجتمع إلا داخل كل واحد منا. ويتفق ماركس مع هذه الحقيقة. ففي كتابه "الإيديولوجيا الألمانية" يكتب ما يلي: "إن الظروف التي تجعل من الأفراد يقيمون علاقة مع الآخرين هي جزء من فردانيتهم، لا شيء خارج عنها. [..] هي ظروف حركتهم الشخصية، وهي وليدة ذلك التحرك نفسه".[55] ما الذي يبقى من "المجتمع" إذا كففتُ من الظهور لذاتي؟ إنها المعجزة

[55]) In Michel Henry, *Le Socialisme selon Marx*, Sulliver, 2008, p. 14-16.

التي جعلت ذاتي الأكثر عمقا تنكشف لنفسها وتكون قاعدة تشكل المجتمع. لذلك لا يمكن أن يحصل أي تغيير جذري في المجتمع إذا لم يسع الشخص الفرد إلى أخذ المبادرة، ولم يُعطه نبضته الأولى. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[56]

لا سلامَ دون العودة إلى النبع الصادر عنه كل الأنفس. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.[57] والله نفسه لا يشعر بالسلام ما دامت النفس البشرية هائمة لا تهتدي إليه. لا يمكن أن يشعر أنه الواحد سوى في اللحظة التي نعترف فيها نحن أنه ملهمنا. ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.[58]

تشير تلك الآية إلى نوع من التبادلية. تأتي المبادرة من الإنسان، ولكنها تنطبق بأثر رجعي على الله تعالى. فالله لا يمكن أن يَعْلَمَ نفسه إذا لم يلتجأ إليه العبد. كما اليد التي لا يمكنها الوعي بوجودها إلا إذا لامس إصبعان بعضهما البعض. وهذه اللُقيا فعلُ قراءة. يقرأ الله نفسه فينا. ذاك معنى الحديث القدسي، وهو كلام

---

[56]) سورة الأنفال؛ آية 53

[57]) سورة البقرة؛ آية 156

[58]) سورة البقرة؛ آية 152

الله يستعمل فيه تعالى ضمير المتكلم المفرد: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ".[59] يصبح الله إذا ما نظنّه عنه.

كل واحد منا في جوهره قرآن حي. وما يحصل في حياتنا نص، سردية، تاريخ ترغب روحنا في سرده على نفسها. وأن تقرأ القرآن يعني أنك تستمع إلى ذاتك في المكان الذي تولد فيه لذاتك. كل فعل معرفي حقيقي هو ولادة.

يصبح دور المجتمع المتحضّر تعليم الإنسان قراءة نفسه. المطلوب تمكين كل شخص من القدرة على الوصول إلى تحقيق الممكنات الأكثر سُمُوًا للذات. أي ما يسمّيه ماركس "باللعبة الحُرّة لقوى البدن والعقل"، أو أيضا "التماهي المطلق للجوهر الإنساني".[60] وعبر تلك الأشكال من الثقافة الرفيعة يمكننا التواصل مع الآخر. ففي هذا الباطن الراديكالي يمكن للفرد أن يصبح واحدًا مع الآخرين. تلك هي السياسة الكبرى: أن تعترف بوجود نوع من الفنّان داخل كل إنسان، لا أن تنظر للفنان كإنسان متميز. يوجد إذن

[59]) Ibn Arabî, *La Niche des Lumières*, Les Éditions de l'OEuvre, 1983, p. 36.
[60]) In Michel Henry, *op. cit.*, p. 25

نَفَسٌ يخترق المجتمع، هو نَفَس التطور الكامن في كل شخص منا.

ومن بين أشكال الثقافات الكبرى يوجد الدين، والفن والعلم. لا حضارة بدون تفاعل هذا الثالوث.

يمرّ الإسلام في فرنسا بمرحلة صعبة. فأغلب المسلمين يعيشون في سياج فكرة عظمة الإسلام في عصره الذهبي؛ وهم يحنّون إلى هيمنته التي يجسدها علماؤه وصُلحاؤه. ولكن الحضارة الأوروبية، وخاصة بعلومها، جاءت لتُبطل أنماط التفكير الأكثر قداسة التي كانوا يسعون عبرها إلى فهم تراثهم. ومنذ سنة 1913، كان صاحبنا بيغوي *Péguy* يقول: "لم يتغير العالم كثيرا منذ المسيح مثلما تغيّر منذ ثلاثين سنة".[61] وإذا أردنا اليوم أن نفهم النصوص المقدسة بنفس المعاول الفكرية التي كان يستعملها إنسان القرون الحادي عشر إلى السابع عشر، نكون كمن يريد الاشتغال بالفيزياء مع التمسك بمبادئ نيوتن وكوبرنيك أو غاليلي.

وللاختصار يمكننا القول إنه يوجد تياران يشقان الحداثة: الفينومينولوجيا في مجال الفكر، والفيزياء

---

[61]) Charles Péguy, *Œuvres en prose*, 1909-1914, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1961, p. 1102.

الكمية في ميدان العلوم. يجب على المسلمين الانفتاح على تلك العلوم لمقاربة العقل بشكل جديد تماما واكتشاف معاني جديدة للنصوص التي تعزّ عليهم. لا أحد يمكنه العيش خارج عصره. خاصّةُ الـ"أنا" هي في أن تكون "الآن". لا بد إذن أن يُبادر المسؤولون الدينيون، بالتزامن مع التعاليم التقليدية، إلى الانفتاح على كُبرى المكتسبات الغربية. ويمكننا هنا تبيّن الدور المحوري الذي يمكن أن تلعبه مؤسسة مثل معهد العالم العربي في هذه المجالات.

يبقى دور السلطات العمومية محددا أيضا. ومن غير المجدي أن تطلب من الناس سلوكا متحضّرًا إذا قطعنا عليهم طرق التعبير عن حضارة كبرى. ليس الإنسان أكثر مما يفكر فيه، وفكره تغمره موجات من الصور التي تبثها التلفزيونات، وهو لن يكون غير مُنتَجٍ للصور التي يستهلكها. لنتذكر مثلا مشروع أندريه مالرو الذي أراد استعمال التلفزيون أداةً لنشر الثقافة. حضارتنا في خطر كبير. لقد تحطمت ألفان وخمسمائة سنة من الثقافة على الأرض دون أن تُحدث ضجيجا. يمكن للأجيال الشابّة أن تعيش دون أن تعترض طريقها أفكار مونتانيو *Montaigne* أو شكسبير. وقد قام جاك ماريتان بهذا التوصيف الدقيق جدا

للعالم المعاصر: "إحدى التوجهات الفاسدة التي تحطّ من قدر الحضارة الصناعية المعاصرة هو نوع من الزهد في خدمة المفيد، نوع من الموت الآثم الذي لا يرجو أي حياة علوية. لا يزال في مقدور البشر أن ينفعلوا وأن يسترخوا، ولكنهم أصبحوا — تقريبا – محرومين تماما من كل متعة ومن سلام الروح؛ تبدو تلك الحياة غير معقولة حتى بالنسبة لكبار [فلاسفة] المادية في العصور القديمة. كان هؤلاء يجلدون أنفسهم، ويتخلّون عن مباهج الحياة وعن كل زخارف المرور الأرضي، *omnem ornatum saeculi*، بهدف وحيد: إيجاد المحفّزات للعمل ثم العمل ثم العمل، ولتحصيل إمبراطورية تكنولوجية حول المادة. لم تكن حياتهم اليومية تفتقر إلى شيء أكثر من مباهج المعنى المتَخَيَّل [..]. لذلك، ولأنهم لا يستطيعون العيش دون مُتعة، فلم يبق لهم من موارد غير تلك الفنون والمباهج التي تُشفي ''غليل الفضول الأعمى لرؤية حيوانية محدّقة'' (*Allen Tate*) خاصة وأنها تنتج الدهشة والنسيان، تماما مثل مُستَخلص المهدّئ الأبيقوري. وليس غريبا أن نجد أنواعا أخرى من المخدرات، ابتداء من الكحول أو القنب الهندي ووصولا إلى عبادة فينوس

الجسد، تحتل مكانة متصاعدة في مسارات التعويض".[62]

إن أول خطة اجتماعية يجب تفعيلها هي استعادة الذكاء عبر المرور بالأعمال الكبرى للذكاء الفارق وللشاعرية الرفيعة. تستعيد الأشياء ترتيبها في الداخل. كل شكل من أشكال المحنة مرتبط بعدم فهم قيمة العقل. والإمكانية الوحيدة التي تجنبنا الحنين إلى العصور الذهبية، وتجعل منا إحيائيين هو أن نستحضر القدرة على فهم المعنى وخلقه، انطلاقا من حدس معاصر. "إذا كان من خير في إنسان الماضي، فهو حصرا في عدم التقليد لديه. لنتشبّه به في جانب إبداعه وخلقه؛ ما الذي يجب عمله لتحصيل ذلك ؟ التقليد ؟ كلا، بل الخلق مثله".[63]

---

[62]) Jacques et Raïssa Maritain, *Œuvres complètes*, vol. X (1952-1959), Éditions universitaires Fribourg-Éditions Saint-Paul, 1985, p. 337.

[63]) Jules Michelet, *Histoire de la révolution française*, vol. I, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1952, p. 609.

قيم الإسلام

قيم الإسلام 1
التعددية الدينية في الإسلام، أو الوعي بالغيرية
إيريك جوفروا
جانفي 2015

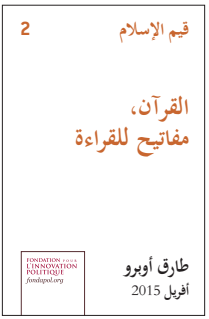
قيم الإسلام 2
القرآن، مفاتيح للقراءة
طارق أوبرو
أفريل 2015

قيم الإسلام 3
الإنسانية والإنسية في الإسلام
أحمد بويردان
أفريل 2015

قيم الإسلام 4
التصوف: روحانية ومواطنة
باريزا الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 5
الإسلام والميثاق الاجتماعي
فيليب موليني
أوت 2015

قيم الإسلام 6
الإسلام وقيم الجمهورية
سعد الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 7
التربية في الإسلام
مصطفى الشريف
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 8
النساء والإسلام، رؤية إصلاحية
أسماء المرابط
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 9
الإسلام والديمقراطية: الأسس
أحمد الريسوني
نوفمبر 2015

قيم الإسلام 10
الإسلام والديمقراطية في مواجهة الحداثة
محمد بدّي ابنو
ديسمبر 2015

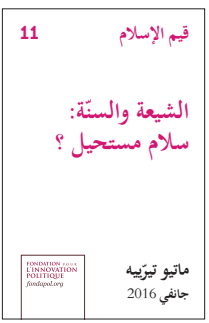
قيم الإسلام 11
الشيعة والسنّة: سلام مستحيل ؟
ماتيو تيرّيه
جانفي 2016

Fondation pour l'innovation politique

مؤسسة التجديد السياسي

ثنك تانك ليبرالي، تقدمي أوروبي

تقدم مؤسسة التجديد السياسي فضاء مستقلا من الخبرة الفنية والتفكير والتبادل، متوجهة نحو إنتاج الأفكار والمقترحات وتوزيعها. وهي تساهم في تعددية الفكر وتنمية الحوار العمومي ضمن توجه ليبرالي، تقدمي أوروبي. وتعطي المؤسسة الأولوية إلى أربعة رهانات كبرى: التنمية الاقتصادية؛ الإيكولوجيا؛ القيم؛ والرقمية.

يضع الموقع الرسمي www.fondapol.org على ذمة الجمهور جميع أعماله. وتجعل منصّتها المعلوماتية " Data fondapol " مُتاحة للجميع للولوج واستعمال المعلومات المُجَـمَّعَة في مختلف مراحل الاستبيانات وبمختلف اللغات، عندما يتعلق الأمر بدراسة عالمية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن موقعنا الإعلامي " Trop Libre " يسلط نظرة نقدية يومية على الأحداث اليومية وحراك الأفكار. " Trop Libre " تقترح أيضا يقظة مستمرة لمتابعة تداعيات الثورة الرقمية على الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عبر تخصيص خانة خاصة في الموقع يحمل تسمية " Renaissance numérique " (الإحياء الرقمي)" وكانت تسمى سابقا: Politique 2.0.

مؤسسة التجديد السياسي مؤسسة غير ربحية، وتخضع لنظام الخدمة العامة. وهي مستقلة ولا تخضع في تمويلها إلى أي حزب سياسي. مواردها عمومية وخاصة، وتتمتع بدعم من الشركات ومن الخواص، وبشكل رئيس من تنمية نشاطاتها.

La Fondation pour l'innovation politique

Les données en open data

data.fondapol

Le site internet

www.fondapol.org

Les médias

fondapol.tv

trop libre

Une voix libérale, progressiste et européenne

11, rue de Grenelle
75007 Paris – France
Tél. : 33 (0)1 47 53 67 00
contact@fondapol.org